جمعية البر بالأحساء

مركز إكرام الموتى

سلسلة الإصدارات الإرشادية (٧)

حينما ابتلي الحبيب



د / فيصل بن سعود الحليبي

عضو هيئة التدريس بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالأحساء

إهداء

إلى من يصوغ الحرف صدقاً

ويرسله على جناح الحب

ويبعث فيه الأمل مهما تأخر صداه

إلى أخي وتوأم روحي الأديب والشاعر الدكتور:

أبي عزام محمود بن سعود الحليبي

أسعده الله في الدنيا بطاعته ..

وأكرمه في الآخرة بلقاء الحبيب ﷺ

أهدي هذا الكتاب

عرفاناً بجميله .. وتقديراً لفضله

أخوك الصغير: فيصل

المقدمة

الحمد لله، له النعم الكثيرة، والحمد لله، له الآلاء الجسيمة، والحمد لله، لا تعد نعمه ولا تحصى، والحمد لله ، يبتلي من عباده من يشاء، والحمد لله الذي لا يحمد على مكروهٍ سواه، وأصلي وأسلم على أفضل الخلق، وأشرف الرسل، محمد عبد الله ورسوله، ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيرا.

يا من يرى ما في الضمير ويسمع
أنت المعد لكل ما يتوقع
يا من يرجّى للشدائد كلها
يا من إليه المشتكى والمفزع
يا من خزائن رزقه في قول كن
امنن فإن الخير عندك أجمع
ما لي سوى فقري إليك وسيلة
فبالافتقار إليك فقري أدفع
ما لي سوى قرعي لبابك حيلة
فلئن رددت فأي باب أقرع
حاشا لجودك أن تقنط عاصيا
الفضل أجزل والمواهب أوسع

أما بعد ....

فإن الله تعالى حينما أراد أن ينشر رحمته على عباده أرسل محمداً ﷺ ، وحينما أراد أن يجعل لهم داعية إلى الخير بإذنه بعث لهم محمدا ﷺ ، وحينما أراد أن يبعث لهم من هو

رؤوف بهم وحريص عليهم اصطفى محمدا ﷺ، وحينما أراد أن يجعل لهم أسوة في شدتهم ورخائهم اختار لهم محمدا ﷺ .

إنه البشير النذير، والسراج المنير محمد ﷺ ، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ٤٦ ﴾ الأحزاب: ٤٥ - ٤٦. والذي قال فيه : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾ الأنبياء: ١٠٧ ، والذي قال فيه: ﴿ لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨ ﴾ التوبة: ١٢٨ ، وجعل لنا فيه الأسوة و القدوة فقال سبحانه : ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ٢١ ﴾ الأحزاب: ٢١ فيا لها من عظمة ثبتت لحبيبنا محمد ﷺ لم يكتسبها من رخاء في العيش، ولا دعة في الحياة، ولا بالتسلط والجبروت، أو بالتخويف والظلم، بل أكسبه الله إياها بصبر وتصبر، وحلم وأناة، وتفاؤل وعمل، وإيمان بالقدر لا يقارنه إيمان، حتى كان ينظر في الظلمة بصيص النور، ومع كل فاجعة يرى بارقة، ومع كل إدبار يبصر إقبالاً، ويبشر بالنصر ولو طالت عليه المحن، وَيَعِدُ بالظفر ولو تكالبت عليه الإحن.

وابتلي الحبيب ﷺ .... لكنه حينما ابْتُلي كان أشد الناس بلاء، فتحمّل قلبه الرحيم من الشدائد ما لا تتحمله آلاف القلوب، وحمل على ظهره من الهموم ما تنوء بحمله الجبال الراسيات، غير أنها صناعة الله تعالى لحبيبه ﷺ، فأَمْرُ الرسالة أمر جلل، وأمر الدعوة أمر عظيم، ولا يمكن أن ينال هذا أو ذاك إلا بمزيد امتحان وشدة ابتلاء.

فدعونا – يا أحباب محمد ﷺ – نقلّب صفحات حياته الكريمة التي كم آسى فيها كثيراً من أجل هدايتنا، وحزن فيها من أجل نجاتنا، لنجدد محبتنا له في قلوبنا، ونعمق

جذورها في صدورنا، فتورثنا المتابعة لهديه، والسير على نهجه، ومهما قلنا ومهما ذكرنا فلن نأتي إلا على القليل، فحياة هذا النبي العظيم ﷺ ابتلاءات متلاحقة، ومحن متوالية، أتناول منها في هذه الأوراق : ابتلاءه : في يتمه، وفي دعوته، وفي أصحابه رضي الله عنهم، وفي أولاده، وفي أزواجه رضي الله عنهن، وابتلاءه بالسحر، وبالمرض، وسكرات الموت ﷺ

وسأقف في آخر وريقاتي هذه لأهمس في أذن المبتلى همسات أخوية، أذكره فيها بالله تعالى، وبصبر النبي ﷺ على ابتلاءاته التي ذكرت جملة منها، علها أن تكون تسلية لقلبه، وأخذاً بزمام نفسه نحو الصبر الجميل، الذي ينبت في القلب الرضا بقضاء الله وقدره.

وأرجو من الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصا لوجه الكريم، وأن ينفع به من كتبه، ومن قرأه، أو سعى في نشره وتوزيعه، وأن يجمعنا جميعا على حوض المختار ﷺ، حيث يطيب اللقاء بإمام الصابرين ﷺ وبالصابرين، جعلنا الله وإياكم منهم، إنه سميع مجيب.

محبكم

فيصل بن سعود الحليبي

أولاً: ابتلاء الحبيب ﷺ في يتمه

إنها الإطلالة الأولى على الحياة، حينما ينكسر فيها خاطر الصغير، وينتظر لمسة الأبوة، فيطول عليه الانتظار حتى يفقد الأمل، إنها الأبوة التي يتطلع إليها كل إنسان في هذه الحياة، ليشعر بالأمان والطمأنينة، والتي افتقدها نبينا ﷺ وهو في بطن أمه، وقيل إنه افتقدها بعد شهرين من ولادته، غير أن اليتم الذي وقع على النبي ﷺ ليس كأي يتم، فقد تلاحقت عليه تبعاته ، حيث تلقفته أمه بجميل الرعاية، وما إن بلغ السادسة من عمره عليه الصلاة والسلام حتى افتقدها، فزادت ثلمة الحزن في قلبه، وما المرء بعد فراق والديه إلا جناح مكسور، وفؤاد مكلوم، ثم سخر الله تعالى له جده عبد المطلب، فظلله بكريم وفادته، وسقاه من حنانه وعطفه، وبعد سنتين يفجعه خبر وفاته، فأي قلبٍ قَلْبُ النبي ﷺ؟ وأي صبر صبره؟ ولكن الله تعالى تكفل بعبده وحبيبه، فولّى أمره عمه أبا طالب؛ لينصره ويعزز من أمره أمام أعدائه المغرمين بإيذائه والاستهزاء به، حتى يصاب النبي ﷺ بمصيبة موته قبل هجرته إلى المدينة بقليل ، فكانت تلك اللحظات من أشد الأزمات على نفسه كمداً، وأكثرها حرقة وامتهانا لدعوته الكريمة؛ إذ كانت بدايةً لجرأة السفهاء من المشركين عليه، حتى إن أحدهم اعترضه مرة، ونثر على رأسه ترابا، فدخل بيته عليه السلام والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته، وجعلت تنفض عنه التراب وهي تبكي، ورسول الله ﷺ يقول لها : ((لا تبكي يا بنية، فإن الله مانع أباك))، ثم قال: ((ما نالت مني قريش شيئا أكرهه حتى مات أبو طالب)).

صبر الحبيب ﷺ على إيذاء السفهاء وكأنه يردد:

يا ربُ ما زال لطف منك يشملني

وقد تجدد بي ما أنت تعلمه

فاصرفه عني كما عودتني كرماً

فمن سواك لهذا العبد يرحمه

لكن الناجح في الابتلاء – أيها الأحبة – موعود بالعون والفوز، ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾الزمر: ٣٦ ، فـلـقـد جـزى الله حبيبه ﷺ على صبره بأن آواه ونصره بالهجرة إلى المدينة، وأكرمه بأخوة المهاجرين والأنصار، فوقفوا معه بأرواحهم وأموالهم وبأنفس ما يملكون، حتى امتن الله بذلك على عبده، فقال عز وجل:﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾الضحى: ٦

فيا أيها الأيتام ..كفكفوا دموعكم..

فإن لكم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة!!

ثانيا: ابتلاء الحبيب ﷺ في فقره:

أيا أحبتاه، ابتلي النبي ﷺ بالفقر، فكيف كانت حاله؟ إنه ربما مرت به الأيام والليالي لا يجد فيها ما يطعم، أو يطعم به أهله ولو كان من رديء التمر ، أو حفنة من شعير، ولربما خرج في جنح الظلام يبحث عن زاد يتزود به ويزوِّد به أهله، ولربما عاد خاليا، ونام طاويا، لم يسكن جوعته، و لم يهنأ بنومه، أما الشبع فلم يعرفه النبي ﷺ يوماً، و لم يتذوق لذته، ونام في غرفة من طين، سقفها من جريد النخل، وربط من الجوع حجرين على بطنه، وتوسد مخدة من سعف النخل أثرت في جنبه، ورهن درعه من حاجة عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير، إنه بلاء لا تقوى عليه الجبال ، ولا تتسع له صدور الرجال، فعليهِ بأبي هو وأميِ أفضل الصلاة وأتم السلام .

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه – قال: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ – ﷺ – ذَاتَ يَوْمٍ أو لَيْلَةٍ فإذا هو بِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رضي الله عنهما، فقال : ((ما أَخْرَجَكُمَا من بُيُوتِكُمَا هذه السَّاعَةَ؟ قالا: الْجُوعُ يا رَسُولَ الله، قال: وأنا وَالذِي نَفْسِي بيده لَأَخْرَجَنِي الذي أَخْرَجَكُمَا)) رواه مسلم.

وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه أنه قال : ((أَلَسْتُمْ فِي طَعَامٍ وَشَرَابٍ مَا شِئْتُمْ ؟!، لَقَدْ رَأَيْتُ نَبِيَّكُمْ ﷺ وَمَا يَجِدُ مِنَ الدَّقَلِ مَا يَمْلأُ بِهِ بَطْنَهُ)) رواه مسلم .

(والدقل: التمر الرديء).

و عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : ((مَا شَبِعَ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْ طَعَامٍ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ حَتَّى قُبِضَ)) رواه البخاري.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّهُ مَرَّ بِقَوْمٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ شَاةٌ مَصْلِيَّةٌ ، فَدَعَوْهُ فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ ، وَقَالَ : ((خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الدُّنْيَا وَلَمْ يَشْبَعْ مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ)) رواه البخاري.

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : ((كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " يَبِيتُ اللَّيَالِي الْمُتَتَابِعَةَ طَاوِيًا وَأَهْلُهُ لَا يَجِدُونَ عَشَاءً)) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

ومع هذا كله، فقد بدأ النبي ﷺ حياته كادحا يطلب الرزق في رعي الغنم، ثم تاجرا في مال خديجة رضي الله عنها، ثم جعل الله رزقه تحت ظل رمحه كما روى ذلك البخاري.

و لم تكن الدنيا وأموالها وزهرتها بهدف للنبي ﷺ بل كان يزهد فيها، ويقنع بالقليل منها، ويخوّف من إقبالها وفتنتها، ولسان حاله يقول:

لئن كنت في الدنيا بصيرا فإنما

بلاغك منها مثل زاد المسافر

إذا أبقت الدنيا على المرء دينه

فما فاته منها فليس بضائر

وهو القائل ﷺ : ((مَن أصبحَ مِنكُم آمِنًا في سِرْبِه، مُعافًى في جسَدِهِ، عندَهُ قُوتُ يَومِه، فَكأنَّمَا حِيزَتْ له الدُّنْيا)) رواه الترمذي وحسنه الألباني.

فيا أيها الفقراء والمحتاجون : ارضوا بما قسم الله لكم، واسعوا في رزق الله ،

فإن لكم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة.

ثالثا: ابتلاء الحبيب ﷺ في دعوته:

تأسرني كلمات الأذان حينما أسمعها من رجل من أقصى الشرق أو الغرب لا يحسن العربية، وهو يردد كلمات التوحيد، يرنم بها صوته، ويخفق بها جنانه، فأقول في خاطري: كم بذلت من أجلها يا رسول الله، وكم ضحيت في سبيلها ، وكم صابرت من أجل رفع رايتها، هنا ينفتح سفر التاريخ في مخيلتي لأراه ﷺ وهو يعود بأول آيات نزلت عليه، ويدخل على خديجة رضي الله عنها يرجف بها قلبه، وتنتفض من هول اللقاء جوارحه وهو يصيح: ((**زملوني زملوني، لقد خشيت على نفسي**)) ، فقالت خديجة رضي الله عنها : كلا والله لا يخزيك الله أبدا ؛ إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. متفق عليه.

أو كأني أراه ﷺ وهو يقف على جبل الصفا ينذر قومه من عذاب الله، فيسفهه أبو لهب قائلا: (تبا لك ألهذا جمعتنا؟!)، وكأني به ﷺ وهو يدعو قومه إلى الجنة فيواجهونه بأقذع الكلمات، وأشنع الأوصاف : كاهن، وساحر، وكذّاب، وأبتر!

ويعظم البلاء على النبي ﷺ الصابر في دعوته، إن أشد الأذى إنما هبت رياحه العاتية من عشيرته وقومه:

وظلمُ ذوي القُربى أشدُّ مضاضةً

على المرءِ من وقعِ الحسامِ المهنَّدِ

كم أرجعني قول ذلك المؤذن: أشهد أن محمداً رسول الله، إلى تلك الصورة الدامية لرسول الله ﷺ وهو سائر في طريق دعوته، والمشركون يدمون قدميه بالحجارة، ويغرون به النساء والأطفال والمجانين، وأم جميل تضع الشوك في طريقه، وأحدهم يطرح رحم الشاة عليه وهو يصلي، وعقبة بن أبي معيط يلقي بسلى الجزور على ظهره الشريف، أو وهو جالس في شعب أبي طالب قد حوصر هو وأهله بلا طعام ولا شراب حتى أكلوا الأوراق والجلود، أو حين توضع الجوائز الثمينة لمن يأتي برأسه الكريم، وهو يسمع نداءات المشركين بقتله، فيدمى جبينه، وتكسر رباعيته، وتضرب وجنته، ويموت دونه أصحابه، وهو يردد قائلا في غزوة أحد: ((**اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون**)).

لا... لم يكن النبي ﷺ يغضب لنفسه، أو يخطط للانتقام لذاته، ولم يكن يحزن لما يلقاه من أذى بقدر ما يخشي على قومه من العذاب في الدنيا والآخرة ، فها هو النبي ﷺ مع اشتداد البلاء عليه تُقَطِّع قلبه الحسرات على قومه حرقة على إعراضهم عن دعوته الصادقة، حتى خفف الله عنه من فوق سبع سموات، فقال له: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٨﴾ ﴾ فاطر: ٨ ، وقال له أيضا : ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ الشعراء: ٣ ، أي: مهلك نفسك من أجلهم حزنا وكمدا.

فانظر بعين التأمل – حفظك الله – إلى هذه المفارقة العجيبة، فحينما يفرح عاشق المال بزيادة ماله يفرح الداعي بازدياد المهتدين، وحينما يحزن صاحب المال على مفارقته بخسارة أو بلاء ، يتحسر الداعية على إعراض الناس عن المعروف والصلاح.

إنها تضحيات نبوية تتوالى، لا تعرف السآمة ولا الملل، حتى أقرَّ الله عينيه بكمال دينه ونشر دعوته، وهنا تذوب حسرات الدعاة بعد رسول الله ﷺ في حسراته، ويتلاشى ابتلاؤهم في ابتلائه، فنشهد أنه قد أدى الأمانة وبلغ الرسالة ونصح الأمة.

فيا أيها الدعاة إلى الله...لا تسأموا من طول الطريق

فإن لكم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة.

رابعا: ابتلاء الحبيب ﷺ في أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم:

يا أحباب محمد ﷺ : لقد حل النبي ﷺ من أصحابه محل الروح والنفس، وشغل منهم مكان القلب والعين، ولقد أحبهم النبي ﷺ وأجلَّهم، ورفع من مكانتهم وأعلى أقدارهم، ووعدهم بالجنات وكريم الهبات من رب الأرض والسموات.

ألم يقل الله تعالى فيهم: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ التوبة: ١٠٠

ألم يدافع عنهم النَّبِيُّ ﷺ بقوله: ((لا تَسُبُّوا أَصْحَابِي ، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا أَدْرَكَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ)) رواه البخاري.

ألم يجعل محبتهم عصب الإيمان ومِفْصَلاً في المنهج حينما قال: ((الأَنْصَارُ لا يُحِبُّهُمْ إِلا مُؤْمِنٌ ، وَلا يُبْغِضُهُمْ إِلا مُنَافِقٌ ، مَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللَّهُ ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللَّهُ)) رواه البخاري.

غير أن الحبيب ﷺ ابتلي فيهم ابتلاءً شديداً، فها هو ذا يراهم يعذبون لنصرتهم دين الله ورسولهِ ﷺ، ويراهم يقدمون أعناقهم في سبيل ألا يُخْدَش له ظفر أو يُشاك بشوكة، ويراهم تُجلد ظهورهم وتُسحل جُلودهم على رمضاء مكة، من أجل كلمة التوحيد، ويراهم يشردون ويطردون ويفرَّق بينهم وبين أزواجهم، ويُحال بينهم وبين أموالهم وديارهم، كل ذلك منهم في إباءٍ وتفانٍ، وصبرٍ واحتساب.

لقد أوذي النبي ﷺ في أصحابه، فهذا أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يُوطَئُ بمكة، ويُضرب ضرباً شديداً، ويدنوا منه عتبة بن ربيعة ليضربه بنعلين مخصوفين على وجهه، ويترو على بطنه حتى ما يُعرف وجهُه من أنفه، حتى أدخلوه مترله لا يَشكون في موته، فإذا ما استفاق جعل يقول: ما فعل رسول الله ﷺ ، ويحلف أن لا يذوق طعاماً ولا يشرب شراباً إلا بعد أن يطمئن على حبيبنا محمد ﷺ .

ويدوّن الأنصار سطوراً من ذهب حقنوها بدمائهم الزكية حينما مات عدد منهم في الذود عن رسول الله ﷺ في غزوة أُحد، حتى جاء آخرهم طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي بُتِرت أصابعه وشلت يده وهو يقي بها النبي ﷺ فكان أهلاً لقول أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيه :

يا طلحة بن عبيد الله قد وجبت

لك الجنان وبُوأت المها عينا

وهذا أبو دجانة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يضع ظهره ترساً يحمي به النبي ﷺ تخرقه السهام وهو لا يتحرك!!

ولا تسلني عن فاجعة النبي ﷺ في عمه حمزةَ بنِ عبد المطلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، الذي قتله المشركون ومثلوا به في غزوة أحد، فقد تفاقمت به المصيبة، واستمطرت من عينيه الدموع الكريمة، حتى قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : ((ما رأينا رسول الله ﷺباكياً قط

أشد من بكائه على حمزةَ بنِ عبد المطلب، وضعه في القبلة، ثم وقف على جنازته، وانتحب حتى شهق من البكاء)).

ماذا سنذكر ؟! وماذا سندع؟! فإنه لما عظمت محبتهم للنبي ﷺ وعظمت محبته لهم، كان كل ابتلاءٍ على نفوسهم عظيماً.

ذهب الذين أُحبهم

فعليكِ يا دنيا السلام

لا تذكرين العيش لي

فالعيشُ بعدهمُ حرام

إني رضيعُ وصالهم

والطفل يؤلمه الفطام

فيا أحباب النبي ﷺ .. ويا أحباب أصحابه..

لكم فيهم أسوة حسنة.

خامسا: ابتلاء الحبيب ﷺ في وطنه:

لقد اختار الله لحبيبنا ﷺ خير الأوطان، فنمى على حصباء مكة، وتعفرت قدماه الشريفتان في رمضائها، وتَعَشَّقَتْ روحه جبالها السمر، ولو لم يكن له فيها إلا بهاء الكعبة وجلالها لكفاه بمكة هياماً وحباً وغراماً.

هنا بمكة آي الله قد نزلت

هنا تربى رسول الله خير نبي

هنا الصحابة عاشوا يصنعون لنا

مجداً فريدا على الأيام لم يشبِ

وابتدأت رحلة بلاء النبي ﷺ بوطنه مكة من تلك اللحظة التي قال له فيها ورقة بن نوفل: يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا، يَا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ!! قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : ((أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟)) قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا . رواه البخاري.

إنه أسى الفراق الذي اعتمل في صدر الحبيب ﷺ حينما عزم المشركون على قتله، وإبادة دعوته، فخيب الله تعالى مؤامراتهم، ورد كيدهم في نحورهم، وأمره بالهجرة من مكة، فاختلطت عليه مشاعر الفرحة بلقاء الأنصار في المدينة، بالحزن على فراق وطنه ومسقط رأسه، ولم لا يحزن على فراقها، أو لا تحزن القلوب لفراق مكة! أولا تذرف الدموع لفراق مكة! أو لا تشتاق الأنفس إلى مكة! أولا تخفق القلوب طربا لذكر مكة!

كيف إذا كان البعد قهراً، والفراق قسراً، فما أشد ذلك على قلب المحب والمحبوب، ها هو ذا نبينا ﷺ وهو في خطواته الأولى على درب الوداع، يهمس في أذن مكة الحزينة على فراقه، يسليها، يمسح دمعاتها بدموعه فيقول لها: ((والذي نفسي بيده إنك من أحب بلاد الله إلى قلبي، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت)) رواه الترمذي وحسنه.

ويخرج النبي ﷺ من مكة، جريح الفؤاد، مكلوم الخاطر، يحمل في فؤاده ذكريات الطفولة ونشأة الشباب ومنطلق الرسالة، وغير أنه على حبها أخذ المواثيق والعهود، ليعودنَّ إليها ولو بعد حين، يحطم الأصنام التي نُصبت فيها، وينشر على جنباتها الأمن والأمان، ويشيع في فضائها كلمات التوحيد، ويعمر ساحات بيت الله الحرام بالعاكفين والركع السجود.

ويسافر حب مكة في قلب النبي ﷺ معه في رحلته إلى المدينة، فها هو ذا لا يبرح يقلِّب وجهه الكريم في السماء ، يطلب ربه سبحانه أن يوجه قبلته في صلاته إلى البلاد التي أسرت فؤاده حبا، إلى حيث مكة المكرمة، فيلبي الله تعالى له كريم سؤاله ليقول له: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ البقرة: ١٤٤ فخفف الله عنه أليم حزنه على فراق وطنه، وأعانه بذلك على مزيد من الصبر الجميل على بعده عنها، غير أن هذا الصبر على بلاء الفراق أثمر أينع القطاف ﴿ نَصْرٌ مِّنَ

ﭐللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞ ﴾ الصف: ١٣ ليعود النبي المبعد عن وطنه إليه، وشعر بنعمة الله عليه، بعد سنوات من الإبعاد والحرمان، وسنوات من الجهاد والنضال، لم يكن ليرفع رأسه كبراً وغطرسةً، ولم يدع لنشوة النصر في نفسه مكانا، بل طأطأ رأسه تواضعا لله العزيز، الذي أكرمه بالفتح العظيم، فتح مكة الحبيبة التي طالما تشوقت إلى طلعته الكريمة، ونفسه الصافية وتعاليم شريعته النبيلة، حتى أن شعر لحيته ليكادُ يمس واسطة الرحل.

فاترك لمخيلتك العنان لترى الحبيب ﷺ يلفّه المهاجرون والأنصار بعظيم الإجلال والتقدير، يقبّل الحجر الأسود، ويطوف بالبيت، ويحطم الأصنام، وهو يقول: ﴿ وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا ٨١ ﴾ الإسراء: ٨١ وقال تعالى: ﴿ وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠ ﴾ الأنفال: ٣٠.

فيا أيها المبعدون عن أوطانهم، ويا أيها الغرباء في ديارهم،

لكم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة.

سادساً :ابتلاء الحبيب ﷺ في أولاده:

النبي ﷺ الذي يوصي أمته بالزواج لتتكاثر أمته، فتصبح من أعظم الأمم يوم القيامة، فيباهي بهم بين الأمم، ليعمروا جنة الله ونعيم الجنة المقيم، النبي ﷺ يبتلى بموت جميع أبنائه، حتى سخر منه الساخرون ولقبوه بالأبتر، فأنزل الله تعالى قوله مسليا لفؤاده: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾

الكوثر: ١ - ٣

لقد مضى نيف وعشرون سنة لم تلد له خلالها زوجة من زوجاته، وفجع في هذه الفترة في كل أولاده سوى فاطمة رضي الله عنها التي ماتت بعده بقليل، فمات القاسم، والطاهر، طفلين، وماتت زينب ورقية وأم كلثوم بعد أن تزوجن، ولم يتعوض من فقدهن ما يعزيه بعض العزاء.

إنها فجائع تضاعف في قلب الأب الحنون الشوق إلى الوليد المأمول، وطول انتظار يضاعف الحب له، فتسرّى بمارية القبطية لتبشره بحملها، فيا قلب الأب المفجوع في فلذات كبده كيف يكون انتظار مولوده الجديد!! وكيف ستكون فيها آماله!! خفقات قلب الوالدين تعجز الكلمات عن وصفها، وتقصر العبارات عن رسم مشاعرها فكيف إذا جاءت بعد طول لوعة، وبلاء وحرقة.

وولد إبراهيم ابن محمد ﷺ ، فامتدت آمال عراض، إنه على اسم الخليل ﷺ ، تاريخ من التوحيد والعبادة، ليكون امتداداً لصفائه وتوحيده وعبادته، فيحمل راية الإخلاص أحفاد من بعدهم أحفاد، غير أنه البلاء حينما يقع بأكرم الناس وأتقاهم.

مات إبراهيم الصغير و لم يدرك السنتين، والمصيبة تعظم في قلوبنا لعظمة من أصيب بها ﷺ، ((لقد كان حزن النبي ﷺ لموت ابنه بمقدار فرحه بمولده، وكان فرحه بمولده بمقدار أمله فيه، واشتياقه إليه)) [1]

كل صبر عظيم، غير أن صبر الوالدين على فراق الولد أكبر من أن تتصوره العقول، أو تتسع له الصدور، لا تسل كيف؟ فأنا مثلك أعجز عن الجواب!

لكنه الإيمان حينما يعمر القلوب، فتمتلئ صبرا وثباتا ويقينا، كل هذا بإنسانية النبي ﷺ العظمى، التي ما تخلت عن شفقتها فتجفو، ولا تعالت عن أبوتها فتقسو، بل أب مؤمن يحب ولده الذي يفقده، فيحزن قلبه، وتدمع عينه، ويرحمه الله بكل ذلك.

عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: دخلنا عليه-أي النبي ﷺ -وإبراهيم يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن ابن عوف رضي الله عنه: وأنت يا رسول الله؟! فقال: (يا ابن عوف، إنها رحمة)، ثم أتبعها بأخرى، فقال ﷺ : (إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون) رواه البخاري.

---

١ عبقرية محمد ﷺ، ص ١٢٦.

فيا كل كبد تفتت حزنا على فراق ولدها،

لكم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة.

سابعا: ابتلاء الحبيب ﷺ في بعض زوجاته رضي الله عنهن:

لم تكن خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها إلا نعمة من نعم الله على نبينا محمد ﷺ، بقيت معه ربع قرن من الزمان، تحن عليه ساعة قلقه، وتؤازره في أحرج أوقاته، وتعينه على إبلاغ رسالته، وتشاركه في مغارم الجهاد المر، وتواسيه بنفسها ومالها، لقد أثنى عليها الحبيب ﷺ فقال: (آمنتْ بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله عز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النساء) رواه أحمد وإسناد صحيح.

ويفتقد الحبيب ﷺ حبيبته رضي الله عنها، بل تفتقد الدعوة الإسلامية خديجة رضي الله عنها فيتراكم الحزن على قلب النبي ﷺ، فكم كانت له ناصرة، وكم كانت له مؤازرة، توفيت خديجة رضي الله عنها تاركة خلفها آثار الجود والكرم، والمنعة والنصرة لدعوة الإسلام، فبأي شيء يكافئ الكرماء، وبأي شيء يجازي من ينصر الله ورسوله ﷺ، إنه سلام الرحمن عليها من فوق سبع سموات، يقرئه جبريل عليه السلام ، ويبلغه أفضل الخلق ﷺ، يتضمن منحة في الجنة، بيتا من قصب لا صخب فيه ولا نصب، كما روي ذلك البخاري في صحيحه؛ جائزة لخديجة بنت خويلد زوج النبي ﷺ .

ويبتلى المؤمن في كل شيء يحبه، وإن من أشد أنواع الابتلاء : الابتلاء في العرض ، حينما يعيش المؤمن طاهر النفس، عفيف الخلق، ينعم بستر الله عليه، ويتقلب في رضاه عنه، مبتعدا عن الفتن، معرضا عن الشهوات، فتسمو نفسه بالإيمان، وتسعد حياته بالإسلام،

وتعرف سريرته بالنقاء والصفاء، هنا ومع هذه النعم العظيمة.. تبدأ عيون الحاسدين بالغمز، وتلوكه الألسنة الحاقدة باللمز، تريد تلطيخ سمعته الطيبة، وتدنيس طويته الصافية، فلا تصطاد إلا في المياه العكرة، لتطعنه بخنجرها المسموم، لتشفي غليلها المحموم، غير مبالية بالعواقب الوخيمة، والنتائج الذميمة، فلا يهدأ لها غليل حتى ترى من تحقد عليه في أتعس حال، وأضيق بال، غير أن النفوس الموقنة بلطف خالقها، المؤمنة بنصر ربها، لا ترى في هذا الابتلاء إلا طريقا للجنة التي أعدها الله للصابرين في الضراء ، الشاكرين في السراء.

وهب أنك ابتليت بهذا لا قدر الله، فاجعل سلوتك النبي ﷺ، فإنه ابتلي بمثل ذلك فصبر حتى فرَّج الله عنه، فقد طُعن في عرضه، حينما اتهمت زوجته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالوقوع في فاحشة الزنا وهي الطاهرة المطهرة، فما كان من شأنها وما كان من شأنه؟

دعونا نستمع القصة ممن وقع عليه هذا البلاء العظيم، وسأذكر قصتها كما أوردها البخاري رحمه الله بسنده عن عائشة رضي الله عنها ولكن بشيء من الاختصار، فإن أم المؤمنين الطاهرة المطهرة رضي الله عنها قالت: قَالَتْ عَائِشَةُ رضي الله عنها: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا أَرَادَ سَفَرًا أَقْرَعَ بَيْنَ أَزْوَاجِهِ، فَأَيَّهُنَّ خَرَجَ سَهْمُهَا خَرَجَ بِهَا رَسُولُ الله ﷺ مَعَهُ، قَالَتْ عَائِشَةُ: فَأَقْرَعَ بَيْنَنَا فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا فَخَرَجَ فِيهَا سَهْمِي، فَخَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ بَعْدَ مَا أُنْزِلَ الحِجَابُ، فَكُنْتُ أُحْمَلُ فِي هَوْدَجِي وَأُنْزَلُ فِيهِ، فَسِرْنَا حَتَّى إِذَا فَرَغَ رَسُولُ الله ﷺ مِنْ غَزْوَتِهِ تِلْكَ وَقَفَلَ، دَنَوْنَا مِنَ الْمَدِينَةِ قَافِلِينَ، آذَنَ لَيْلَةً بِالرَّحِيلِ، فَقُمْتُ

حِينَ آذَنُوا بِالرَّحِيلِ، فَمَشَيْتُ حَتَّى جَاوَزْتُ الجَيْشَ، فَلَمَّا قَضَيْتُ شَأْنِي أَقْبَلْتُ إِلَى رَحْلِي، فَلَمَسْتُ صَدْرِي، فَإِذَا عِقْدٌ لِي مِنْ جَزْعِ ظَفَارِ قَدِ انْقَطَعَ، فَرَجَعْتُ فَالْتَمَسْتُ عِقْدِي فَحَبَسَنِي ابْتِغَاؤُهُ، قَالَتْ: وَأَقْبَلَ الرَّهْطُ الَّذِينَ كَانُوا يُرَحِّلُونِي، فَاحْتَمَلُوا هَوْدَجِي فَرَحَلُوهُ عَلَى بَعِيرِي الَّذِي كُنْتُ أَرْكَبُ عَلَيْهِ، وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنِّي فِيهِ، وَكَانَ النِّسَاءُ إِذْ ذَاكَ خِفَافًا لَمْ يَهْبُلْنَ، وَلَمْ يَغْشَهُنَّ اللَّحْمُ، إِنَّمَا يَأْكُلْنَ العُلْقَةَ مِنَ الطَّعَامِ، فَلَمْ يَسْتَنْكِرِ القَوْمُ خِفَّةَ الهَوْدَجِ حِينَ رَفَعُوهُ وَحَمَلُوهُ، وَكُنْتُ جَارِيَةً حَدِيثَةَ السِّنِّ، فَبَعَثُوا الجَمَلَ فَسَارُوا، وَوَجَدْتُ عِقْدِي بَعْدَ مَا اسْتَمَرَّ الجَيْشُ، فَجِئْتُ مَنَازِلَهُمْ وَلَيْسَ بِهَا مِنْهُمْ دَاعٍ وَلاَ مُجِيبٌ، فَتَيَمَّمْتُ مَنْزِلِي الَّذِي كُنْتُ بِهِ، وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ سَيَفْقِدُونِي فَيَرْجِعُونَ إِلَيَّ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسَةٌ فِي مَنْزِلِي، غَلَبَتْنِي عَيْنِي فَنِمْتُ، وَكَانَ صَفْوَانُ بْنُ الْمُعَطَّلِ السُّلَمِيُّ ثُمَّ الذَّكْوَانِيُّ مِنْ وَرَاءِ الجَيْشِ، فَأَصْبَحَ عِنْدَ مَنْزِلِي، فَرَأَى سَوَادَ إِنْسَانٍ نَائِمٍ فَعَرَفَنِي حِينَ رَآنِي، وَكَانَ رَآنِي قَبْلَ الحِجَابِ، فَاسْتَيْقَظْتُ بِاسْتِرْجَاعِهِ حِينَ عَرَفَنِي، فَخَمَّرْتُ وَجْهِي بِجِلْبَابِي، وَوَاللهِ مَا تَكَلَّمْنَا بِكَلِمَةٍ، وَلاَ سَمِعْتُ مِنْهُ كَلِمَةً غَيْرَ اسْتِرْجَاعِهِ، وَهَوَى حَتَّى أَنَاخَ رَاحِلَتَهُ، فَوَطِئَ عَلَى يَدِهَا، فَقُمْتُ إِلَيْهَا فَرَكِبْتُهَا، فَانْطَلَقَ يَقُودُ بِي الرَّاحِلَةَ حَتَّى أَتَيْنَا الجَيْشَ مُوغِرِينَ فِي نَحْرِ الظَّهِيرَةِ وَهُمْ نُزُولٌ، قَالَتْ: فَهَلَكَ مَنْ هَلَكَ، وَكَانَ الَّذِي تَوَلَّى كِبْرَ الإِفْكِ عَبْدُ اللهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ، قَالَ عُرْوَةُ: أُخْبِرْتُ أَنَّهُ كَانَ يُشَاعُ وَيُتَحَدَّثُ بِهِ عِنْدَهُ، فَيُقِرُّهُ وَيَسْتَمِعُهُ وَيَسْتَوْشِيهِ، وَقَالَ عُرْوَةُ أَيْضًا: لَمْ يُسَمَّ مِنْ أَهْلِ الإِفْكِ أَيْضًا إِلَّا حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَمِسْطَحُ بْنُ أُثَاثَةَ، وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ، فِي نَاسٍ آخَرِينَ لاَ عِلْمَ لِي بِهِمْ، غَيْرَ أَنَّهُمْ عُصْبَةٌ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى...

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَقَدِمْنَا المَدِينَةَ، فَاشْتَكَيْتُ حِينَ قَدِمْتُ شَهْرًا، وَالنَّاسُ يُفِيضُونَ فِي قَوْلِ أَصْحَابِ الإِفْكِ، لاَ أَشْعُرُ بِشَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، وَهُوَ يَرِيبُنِي فِي وَجَعِي أَنِّي لاَ أَعْرِفُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ اللُّطْفَ الَّذِي كُنْتُ أَرَى مِنْهُ حِينَ أَشْتَكِي، إِنَّمَا يَدْخُلُ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَيُسَلِّمُ، ثُمَّ يَقُولُ: «كَيْفَ تِيكُمْ»، ثُمَّ يَنْصَرِفُ، فَذَلِكَ يَرِيبُنِي وَلاَ أَشْعُرُ بِالشَّرِّ، حَتَّى خَرَجْتُ حِينَ نَقَهْتُ، فَخَرَجْتُ مَعَ أُمِّ مِسْطَحٍ قِبَلَ المَنَاصِعِ، وَكَانَ مُتَبَرَّزَنَا... قَالَتْ:... فَأَقْبَلْتُ أَنَا وَأُمُّ مِسْطَحٍ قِبَلَ بَيْتِي حِينَ فَرَغْنَا مِنْ شَأْنِنَا، فَعَثَرَتْ أُمُّ مِسْطَحٍ فِي مِرْطِهَا فَقَالَتْ: تَعِسَ مِسْطَحٌ، فَقُلْتُ لَهَا: بِئْسَ مَا قُلْتِ، أَتَسُبِّينَ رَجُلًا شَهِدَ بَدْرًا؟ فَقَالَتْ: أَيْ هَنْتَاهْ وَلَمْ تَسْمَعِي مَا قَالَ؟ قَالَتْ: وَقُلْتُ: مَا قَالَ؟ فَأَخْبَرَتْنِي بِقَوْلِ أَهْلِ الإِفْكِ، قَالَتْ: فَازْدَدْتُ مَرَضًا عَلَى مَرَضِي، فَلَمَّا رَجَعْتُ إِلَى بَيْتِي دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: «كَيْفَ تِيكُمْ»، فَقُلْتُ لَهُ: أَتَأْذَنُ لِي أَنْ آتِيَ أَبَوَيَّ؟ قَالَتْ: وَأُرِيدُ أَنْ أَسْتَيْقِنَ الخَبَرَ مِنْ قِبَلِهِمَا، قَالَتْ: فَأَذِنَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ ، فَقُلْتُ لِأُمِّي: يَا أُمَّتَاهُ، مَاذَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ؟ قَالَتْ: يَا بُنَيَّةُ، هَوِّنِي عَلَيْكِ، فَوَاللهِ لَقَلَّمَا كَانَتِ امْرَأَةٌ قَطُّ وَضِيئَةً عِنْدَ رَجُلٍ يُحِبُّهَا، لَهَا ضَرَائِرُ، إِلَّا كَثَّرْنَ عَلَيْهَا، قَالَتْ: فَقُلْتُ: سُبْحَانَ اللهِ، أَوَلَقَدْ تَحَدَّثَ النَّاسُ بِهَذَا؟ قَالَتْ: فَبَكَيْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى أَصْبَحْتُ لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، ثُمَّ أَصْبَحْتُ أَبْكِي، قَالَتْ: وَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ وَأُسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ حِينَ اسْتَلْبَثَ الوَحْيُ، يَسْأَلُهُمَا وَيَسْتَشِيرُهُمَا فِي فِرَاقِ أَهْلِهِ، قَالَتْ: فَأَمَّا أُسَامَةُ فَأَشَارَ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالَّذِي يَعْلَمُ مِنْ بَرَاءَةِ أَهْلِهِ، وَبِالَّذِي يَعْلَمُ لَهُمْ فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ أُسَامَةُ: أَهْلَكَ، وَلاَ نَعْلَمُ إِلَّا خَيْرًا، وَأَمَّا عَلِيٌّ

فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَمْ يُضَيِّقِ اللهُ عَلَيْكَ، وَالنِّسَاءُ سِوَاهَا كَثِيرٌ، وَسَلِ الجَارِيَةَ تَصْدُقْكَ، قَالَتْ: فَدَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بَرِيرَةَ، فَقَالَ:«أَيْ بَرِيرَةُ، هَلْ رَأَيْتِ مِنْ شَيْءٍ يَرِيبُكِ؟». قَالَتْ لَهُ بَرِيرَةُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، مَا رَأَيْتُ عَلَيْهَا أَمْرًا قَطُّ أَغْمِصُهُ غَيْرَ أَنَّهَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، تَنَامُ عَنْ عَجِينِ أَهْلِهَا، فَتَأْتِي الدَّاجِنُ فَتَأْكُلُهُ، قَالَتْ: فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ يَوْمِهِ فَاسْتَعْذَرَ مِنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أُبَيٍّ، وَهُوَ عَلَى المِنْبَرِ، فَقَالَ:«يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، مَنْ يَعْذِرُنِي مِنْ رَجُلٍ قَدْ بَلَغَنِي عَنْهُ أَذَاهُ فِي أَهْلِي، وَاللهِ مَا عَلِمْتُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا خَيْرًا، وَلَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا مَا عَلِمْتُ عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا، وَمَا يَدْخُلُ عَلَى أَهْلِي إِلَّا مَعِي» قَالَتْ: فَقَامَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ أَخُو بَنِي عَبْدِ الأَشْهَلِ، فَقَالَ: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ أَعْذِرُكَ، فَإِنْ كَانَ مِنَ الأَوْسِ ضَرَبْتُ عُنُقَهُ، وَإِنْ كَانَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنَ الخَزْرَجِ أَمَرْتَنَا فَفَعَلْنَا أَمْرَكَ، قَالَتْ: فَقَامَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَهُوَ سَيِّدُ الخَزْرَجِ، قَالَتْ: وَكَانَ قَبْلَ ذَلِكَ رَجُلًا صَالِحًا، وَلَكِنِ احْتَمَلَتْهُ الحَمِيَّةُ، فَقَالَ لِسَعْدٍ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ لاَ تَقْتُلُهُ، وَلاَ تَقْدِرُ عَلَى قَتْلِهِ، وَلَوْ كَانَ مِنْ رَهْطِكَ مَا أَحْبَبْتَ أَنْ يُقْتَلَ. فَقَامَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ سَعْدٍ، فَقَالَ لِسَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ: كَذَبْتَ لَعَمْرُ اللهِ لَنَقْتُلَنَّهُ، فَإِنَّكَ مُنَافِقٌ تُجَادِلُ عَنِ المُنَافِقِينَ، قَالَتْ: فَثَارَ الحَيَّانِ الأَوْسُ وَالخَزْرَجُ حَتَّى هَمُّوا أَنْ يَقْتَتِلُوا، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ قَائِمٌ عَلَى المِنْبَرِ، قَالَتْ: فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُخَفِّضُهُمْ، حَتَّى سَكَتُوا وَسَكَتَ، قَالَتْ: فَبَكَيْتُ يَوْمِي ذَلِكَ كُلَّهُ لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، قَالَتْ: وَأَصْبَحَ أَبَوَايَ عِنْدِي، وَقَدْ بَكَيْتُ لَيْلَتَيْنِ وَيَوْمًا، لاَ يَرْقَأُ لِي دَمْعٌ وَلاَ أَكْتَحِلُ بِنَوْمٍ، حَتَّى إِنِّي لَأَظُنُّ أَنَّ البُكَاءَ فَالِقٌ كَبِدِي، فَبَيْنَا أَبَوَايَ جَالِسَانِ عِنْدِي وَأَنَا أَبْكِي، فَاسْتَأْذَنَتْ عَلَيَّ امْرَأَةٌ مِنَ

الأَنْصَارِ فَأَذِنْتُ لَهَا، فَجَلَسَتْ تَبْكِي مَعِي، قَالَتْ: فَبَيْنَا نَحْنُ عَلَى ذَلِكَ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَيْنَا فَسَلَّمَ ثُمَّ جَلَسَ، قَالَتْ: وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مُنْذُ قِيلَ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ لَبِثَ شَهْرًا لاَ يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي بِشَيْءٍ، قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ جَلَسَ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ، يَا عَائِشَةُ، إِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً، فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ، فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ ثُمَّ تَابَ، تَابَ اللهُ عَلَيْهِ»، قَالَتْ: فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مَقَالَتَهُ قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، فَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنِّي فِيمَا قَالَ: فَقَالَ أَبِي: وَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي رَسُولَ اللهِ ﷺ فِيمَا قَالَ: قَالَتْ أُمِّي: وَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ - وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، لاَ أَقْرَأُ مِنَ القُرْآنِ كَثِيرًا-: إِنِّي وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ: لَقَدْ سَمِعْتُمْ هَذَا الحَدِيثَ حَتَّى اسْتَقَرَّ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، فَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ: إِنِّي بَرِيئَةٌ، لاَ تُصَدِّقُونِي، وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ، وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي مِنْهُ بَرِيئَةٌ، لَتُصَدِّقُنِّي، فَوَاللهِ لاَ أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا إِلَّا أَبَا يُوسُفَ حِينَ قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾ [يوسف: ١٨] ثُمَّ تَحَوَّلْتُ وَاضْطَجَعْتُ عَلَى فِرَاشِي، وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي حِينَئِذٍ بَرِيئَةٌ، وَأَنَّ اللهَ مُبَرِّئِي بِبَرَاءَتِي، وَلَكِنْ وَاللهِ مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ اللهَ مُنْزِلٌ فِي شَأْنِي وَحْيًا يُتْلَى، لَشَأْنِي فِي نَفْسِي كَانَ أَحْقَرَ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ اللهُ فِيَّ بِأَمْرٍ، وَلَكِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ بِهَا، فَوَاللهِ مَا رَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَجْلِسَهُ،

وَلاَ خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ البَيْتِ، حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ البُرَحَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِنَ العَرَقِ مِثْلُ الجُمَانِ، وَهُوَ فِي يَوْمٍ شَاتٍ مِنْ ثِقَلِ القَوْلِ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْهِ، قَالَتْ: فَسُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَتْ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا أَنْ قَالَ: «يَا عَائِشَةُ، أَمَّا اللهُ فَقَدْ بَرَّأَكِ» قَالَتْ: فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَيْهِ، فَقُلْتُ: وَاللهِ لاَ أَقُومُ إِلَيْهِ، فَإِنِّي لاَ أَحْمَدُ إِلَّا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَتْ: وَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾ النور: ١١ العَشْرَ الآيَاتِ، ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ هَذَا فِي بَرَاءَتِي، قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحِ بْنِ أُثَاثَةَ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَفَقْرِهِ: وَاللهِ لاَ أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا، بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ مَا قَالَ، فَأَنْزَلَ اللهُ :

﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ ﴾- إِلَى قَوْلِهِ - ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾النور:٢٢ قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: بَلَى وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لِي، فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ، وَقَالَ: وَاللهِ لاَ أَنْزِعُهَا مِنْهُ أَبَدًا. رواه البخاري ومسلم.

اصبر على الدهر إن أصبحت منغمسا

بالضيق في لجج تهوى إلى لجج

فما تجرع كأس الصبر معتصم

بالله إلا أتاه الله بالفرج

إنها عبرة من الابتلاء، يصاب بها أفضل الانبياء، فيصبر، وتتعرض لها أحب نسائه إليه فتكرم بتفريج من رب السموات والأرض فتشكر.

فيا من ابتلاه الله في عرضه..

لك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة.

ثامنا:ابتلاء الحبيب ﷺ بالسحر:

لقد تعرض النبي ﷺ لمؤامرات كثيرة من أعدائه من الكفرة واليهود، كان من أخبثها أن سحروه ﷺ ، حتى غدا تقول عنه عائشة رضي الله عنها :سُحِرَ النبيُ ﷺحتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، حتى كان ذات يوم دعا ودعا ثم قال: ((أشعرت أن الله أفتاني فيما فيه شفائي، وأتاني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي فقال: أحدهما للآخر : ما وجع الرجل، قال مطبوب، قال: ومن طبه؟ قال لبيد بن الأعصم، قال: في ماذا؟ قال: في مشط ومشاقة[٢] وجف طلعة ذكر[٣] ، قال: فأين هو؟ قال: في بئر ذروان))، فخرج إليها النبي ﷺ ثم رجع، فقال لعائشة حين رجع: ((نخلها، كأنه رءوس شيطان))، فقلت: استخرجه، فقال: ((لا، أما أنا فقد شفاني الله، وخشيت أن يثير ذلك على الناس شرا ثم دفنت البئر)) رواه البخاري.

حتى السحر أصيب الحبيب ﷺ به حتى عافاه الله تعالى، ولم يكن لهذا السحر أثر على شريعته.

فيا من يؤرقه طغيان السحرة عليه أو على حبيبه: التمس دواءك في الحلال ، وتضرع إلى بارئك..

فإن لك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة.

[٢] ومشاقة: ما يسقط من الشعر أثناء المشط
[٣] ما يكون فيه لقاح النخل

تاسعا:ابتلاء الحبيب ﷺ في مرض الموت وسكراته:

يا من أحببتم محمدا ﷺ اعلموا أن البقاء لله الواحد القهار، غير أن للحبيب في النفس مكانا ومنزلة، وإن له لذكرى وقدرا، فكيف إذا كان الحبيب هو محمد ﷺ، وكيف إذا كان المكابد للموت هو محمد ﷺ، وكيف إذا كان المفارق هو محمد ﷺ!!

لقد ألم المرض بالمصطفى ﷺ فأخذه صداع في رأسه، واتقدت عليه حرارته، حتى أرق عينيه، وأسهر ليله، وبلغ به الوجع مبلغه، فما استطاع لعبراته كتما، ولا لآلامه حدا، إنه يغالب نفسه، غير أن المصاب جلل، وسطوة الموت عظيمة، فلم يجد إلا أن يتبادل مع عائشة رضي الله عنها الشكوى بعد الله تعالى، فها هي ذي يلم برأسها ألم فصاحت بالنبي ﷺ قائلة: ((وارأساه!)) فقال رسول الله ﷺ – وكان قد أرهقه مرض الموت – : ((ذاك لو كان وأنا حي فأستغفر لك وأدعو لك))،فقالت عائشة: واثكلياه، فقال النبي ﷺ: ((بل أنا ورأساه..)) رواه البخاري.

وتَسْرِي في النبي ﷺ أوجاعه ، فتشتد عليه سياطها، فتشتاق نفسه إلى زوجته المقربة إلى نفسه، ولتقوم عليه، وتأنسه في آخر لحظات حياته، لتخفف عنه – بعد الله – وطأة المرض، فلا أعلم والله كيف أصف لك نداءات النبي ﷺ بنبراته المؤثرة وهو يسأل في مرضه الذي مات فيه : ((أين أنا غدا، أين أنا غدا))، يريد يوم عائشة ، فأذن له أزواجه يكون حيث شاء. رواه البخاري.

وحينما حانت ساعة الوداع لم تملك عائشة رضي الله عنها إلا أن ترد للنبي ﷺ شيئا من حنانه عليها؛ فإنه حينما مرض مرض موته وثقل، أخذت بيده لتصنع به مثلما كان يصنع بها في مرضها، لكن لقاء الله تعالى كان أحب إليه من كل شئ ، حتى حكت عائشة منظر الوفاء هذا فقالت: فلما مرض رسول الله وثقل، أخذت بيده لأصنع به نحو ما كان يصنع ، فانتزع يده من يدي ثم قال: ((اللهم اغفر لي واجعلني مع الرفيق الأعلى))، قالت : فذهبت أنظر فإذا هو قد قضى. رواه مسلم.

وروي البخاري بسنده عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: إن من نعم الله على رسول الله ﷺ توفي في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري[٤] ، وأن الله جمع بين ريقي وريقه عند موته، دخل عليَّ عبد الرحمن وبيده السواك وأنا مسندة رسول الله ﷺ فرأيته ينظر إليه، وعرفت أنه يحب السواك ، فقلت: آخذه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فتناولته فاشتد عليه، وقلت : أُلَيِّنه لك؟ فأشار برأسه أن نعم، فلينته فأمرَّه وبين يديه ركوة أو علبة – يشك عمر – فيها ماء فجعل يدخل يديه في الماء فيمسح بها وجهه يقول: ((لا إله إلا الله؛ إن للموت سكرات)) ، ثم نصب يده فجعل يقول: ((في الرفيق الأعلى))، حتى قبض ومالت يده. رواه البخاري.

هكذا تمر سنوات الدعوة المحمدية بحلوها ومرها، وتعبها ونصبها، وابتلاءاتها وامتحاناتها، غير أن النبي ﷺ سيد المؤمنين، وقائد الصابرين، لم تفت في عضده الآلام والمصائب، ولم

[٤] السحر: هو الصدر، وهو في الأصل الرئة، والنحر: المراد به مضع النحر، وهو في الرقبة، وقصدت بذلك أنه مات ورأسه على أعلى صدرها، أفاده ابن حجر رحمه الله

يقابلها إلا بمزيد توكل واعتماد على الله القدير، فكانت منه ابتسامة الرضا في آخر يوم من حياته، لتمسح عن رأسه الشريفة كل عرق تصبب من جبينه الأزهر في سبيل نجاة أمته، ولتبشره بفلاح دعوته، وليرسم للأمة طريق النجاح بعد الكفاح، فعن أنس رضي الله عنه((أن أبا بكر كان يصلي لهم في وجع رسول الله ﷺ الذي توفي فيه حتى إذا كان يوم الإثنين وهم صفوف في الصلاة كشف رسول الله ﷺ ستر الحجرة فنظر إلينا وهو قائم كأن وجهه ورقة مصحف ثم تبسم رسول الله ﷺ ضاحكاً قال: فبهتنا ونحن في الصلاة من الفرح بخروج رسول الله ﷺ ونكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف وظن أن رسول الله ﷺ خارج للصلاة فأشار إليهم رسول الله ﷺ فأرخى الستر، قال: فتوفي رسول الله ﷺ من يومه ذلك)) رواه البخاري.

توفى النبي ﷺ وبقيت لنا سنته وشريعته وأخلاقه ومآثره، فهو القدوة العظمى، والمثل الأعلى.

فيا من أرهقهم المرض، أو شق عليهم وجعه

فإن لكم في رسول الله ﷺ أسوة حسنة.

عاشراً: نحن والابتلاء:

لا تتميز المعادن الطيبة من دونها إلا بالتمحيص، ولا يتميز الطالب المجد من المهمل إلا بالامتحان، ولا يتبين الصديق الكريم من اللئيم إلا في الشدائد، ولا يتضح حلو الحياة إلا بمرها، ولا يتميز المؤمن من غيره إلا بالابتلاء، هكذا سنة الله تعالى في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلا.

غير أن للابتلاء حرقة، وإن له لهمًّا، وإن كنا نسمع بهذا عنه؛ لكن الأمر يختلف حينما يطرق الابتلاء باب أحدنا ، هنا تبدأ رحلة المعاناة والمكابدة ، حيث تضيق الدنيا به بما رحبت، ويصبح الأفق على اتساعه كأنه قيد محكم على رقبته يكاد يخنقه، فيبدأ المبتلى يبحث عن سند له يخرجه مما هو فيه؛ فإن تعلق قلبه بأسباب الدنيا وحدها فإنه يتعس ويشقى، حيث ضل الطريق الآمن.

الأموال!! كم كانت الأموال سبباً لزيادة البلاء وشقاوته، فماذا تغني الأموال من سُلبت صحته، فما يستطيع أن يضع اللقمة في فيه، وما تغني الأموال من يرى ولده يتقطع أمامه ألما وهو لايستطيع أن يخفف عنه وطأة الوجع مثقال ذرة، وما تغني الأموال إذا ابتلي المرء في عرضه، هل يستطيع أن يشتري ألسنة الناس فيحجمها عن الكلام فيه؟ وهل تنفع الأموال عن نفسها شيئا من البلاء إذا وجه البلاء سلاحه عليها ففتك بها، فكم من غني يتبجح بغناه، ويزهو بتجارته، غدا في لحظة كسير البال، منهزم النفس!!

وقد تغدر الدنيا فيمسي غنيها

فقيرا ويغنى بعد عسر فقيرها

وكم قد رأينا من تكدر عيشة

وأخرى صفا بعد انكدار غديرها

أم هل يغني الجاه في رفع البلاء ، أم هل تغني الوسائط في رفع البلاء..؟!

ما أضعف الإنسان ، ويزيد في ضعفه إذا لجأ لمثله، أو لجأ إلى شيئٍ فانٍ لا يعرف البقاء.

أما المؤمن الصادق مع ربه، الموقن بفرجه، فهو وإن ضاق صدره بالابتلاء، وتكالبت عليه همومه بسببه، فهو يعرف كيف يخلص منه، وكيف ترسو سفينته التائهة على ساحل النجاة الآمن، وذلك حينما يحس بأنه لا باب له يطرقه إلا باب ربه سبحانه، وأنه لا مفرج لهمه إلا الله سبحانه، وهو الذي يسخر له ما يشاء ومن يشاء لتفريج كربته:

عسى الهم الذي أمسيت فيه

يكون وراءه فرج قريب

فيأمن خائف ويغاث عان

ويأتي أهله النائي الغريب

فترى العبد المبتلى يعيد النظر فيما يعمل، ويرجع الأسباب إلى تقصيره في حق ربه ، فيتوب ويؤوب ، ويسلك طريق الأخيار والصالحين، ثم يحسن الظن بربه، ويوقن بأنه القادر سبحانه أن يبدل كدره فرحا، ويحول بؤسه نعمة، فتراه يقطع علائق الدنيا من قلبه، ويتوجه إلى خالقه، ينطرح بين يديه، ويتضرع له، يسأله سؤال الفقراء المحتاجين، وينكسر

بذلة لمن أوجده وتفضل عليه، فهنيئا لصاحب الإيمان إيمانه الذي يعصمه بإذن ربه من زلل التوكل على غيره، وهنيئا له هدايته لذكر ربه في أحلك الظروف وأشدها، ذلك حينما يرطب لسانه بقوله : ((إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله)).

فما هي الجائزة إذا لمن وفق في ابتلائه إلى هذا الإيمان الرفيع، وما هي البشرى لمن هدي إلى هذا الطريق المستنير؟ فجمع بين الصبر والاحتساب، والأمل في الله الرحيم التواب: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾البقرة: ١٥٥ - ١٥٦

تلك هي حقيقة النجاة من أعظم الابتلاء حرقة وأشدها فتكا، الخوف.. والجوع .. ونقص الأموال والأنفس والثمرات، فماذا بقي بعد من الابتلاء؟

فإذا قابلت ذلك بالصبر والإيمان وحوقلت واسترجعت، جاءتك النتائج تباعا يزفها لك الودود سبحانه: صلوات من عنده ورحمة، وهداية تسوقك إلى جنة الخلد والنعيم المقيم.

أخي.. يا من حل البلاء بك، فبرح في صدرك، واستثقلته نفيك، وأحسست أن الدنيا كلها قاتمة أمامك تلفت يمنة ويسرة.. فكم مبتلى ستبصره عيناك ، وكم منكوب سيحرق قلبك، وكم ثكلى ستفري كبدك، وكم خد رافق الدموع، وكم حلق سكنته العبرات؟!!

ها قد سمعت ما جرى للحبيب ﷺ من ابتلاء وامتحان، فقابلها بالصبر والتوكل على الله، أليس لك في رسول الله ﷺ أسوة حسنة؟

ومن قبله: سحر بنوح، وطورد عيسى، وقتل زكريا ، وذبح يحيى ، ووضع الخليل في النار، وابتلي أيوب، وكيد ليوسف، واهمت مريم ، عليهم الصلاة والسلام أجمعين، وسار الأئمة من بعدهم على طريق الابتلاء ، فضرج عمر بدمه، واغتيل عثمان، وطعن علي، وسجن الائمة وجلدوا وعذبوا، رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

والآن: كيف يبدو لك ابتلاؤك بعد هذا كله؟ بل كيف يبدو لك ابتلاؤك إذا علمت أنه سبيل إلى جنة عرضها السموات والأرض، ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ آل عمران: ١٤٢

بل كيف يبدو لك مصابك وأنت تسمع أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: ((وجدنا خير عيشنا بالصبر))، وقال أيضا: ((أصبحت وما لي مطلب إلا التمتع بمواطن القضاء)).

وما أجمل وصية لقمان لابنه حينما قال له: ﴿ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ لقمان: ١٧ أيها المحزون..

لماذا أرى الحزن يبرح في فؤادك، ويفري كبدك، ويخيم على صدرك، حتى صرت ترى البياض سوادا، والحلو مرا، والعرس مأتما، فعافت نفسك الملذات واستوحشت عينك النوم، وتركت الأحزان تلقي بثقلها على ظهرك، فما عدت تبصر في السعادة في أبهى حللها إلا شبحا مخيفا في ليل دامس مليء بالسكون.

ما هذا أيها المحزون، ماذا جرى لك، ما هذا التسارع في الأحزان، مالك قد حصرت نفسك في زاوية من الحزن ضيقة المسالك، هلا إذا ضاق عليك مسلك فتحت للنور

مسلكا آخر، تبصر به الحياة من جديد، وتنسى به همك، وتنفس به عن غمك، سبحان الله.. كيف تمكن منك الكرب فأنساك أنك به ما زلت تتقلب في نعم كثيرة.. فإن كنت سميعا.. فكم في القوم من الصم، وإن كنت متكلما... فكم في القوم من البكم، وإن كنت بصيرا.. فكم في القوم من العمي، وإن كنت صحيحا.. فكم من القوم من المرضى، وإن كنت مكسوا.. فكم في القوم من العري، وإن كنت غنيا.. فكم من القوم من الفقراء، وإن كنت آمنا.. فكم في القوم الخائفين...

أجبني بربك..

هل مر عليك يوم لم تجد فيه تمر واحدة تأكلها؟ هل تضور أطفالك تحت قدميك يستجدونك مذقة لبن أو شربة ماء فلم تجدها؟ هل رأيت بأم عينيك كيف تتحول أنفاس من حولك من شيوخ ونساء وأطفال إلى أنين تقطع نبراته نياط القلوب ذعرا وخوفا؟

أي حزن هذا الذي تعممت به وأنت قد حيزت لك الدنيا، نعم الدنيا، فإن النبي ﷺ يقول: ((من أصبح منكم معافى في جسده، آمنا في سربه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا)) رواه الترمذي وابن ماجه وحسنه الألباني.

فكم دنا قد حزتها الآن؟

لقد كان حال رسول الله ﷺ وأهله وخلفائه الراشدين ، شظف في العيش ، وكفاف في الحياة ، وقناعة في الرزق، فما ملئوا حياتهم ضجرا، ولا كدروا أجواءهم تأففا وتبرما، بل غرسوا في قلوبهم الرضا، فأنبت السعادة والاطمئنان.

أرأيت أيها المحزون كم ظلمت نفسك بحزنك وكآبتك ، وأنت توقن أنك في نعم الإله، تغرف من معينها، وتنهل من صفائها، ألا ترى إلى حياتنا كيف غدت أطباقا من الرفاهية بعضها فوق بعض، لكن أعيننا لا تشبع، وقلوبنا لا ترضى..

هيا ابدأ أول خطوة في دفع الحزن عنك، فأكثر الشكر الجزيل للخالق الديان، الرحيم الرحمن، فإنه القائل سبحانه: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الملك: ٢٣

هلا أتبعت ذلك خطوة أخرى ، فنبذت التشاؤم وتفاءلت بالخير، فإن النبي ﷺ يقول: ((لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل))، قالوا: وما الفأل؟ قال: ((كلمة طيبة)) رواه البخاري.

تفاءل أيها المحزون بإشراقة الشمس، وبهطول قليل من الغيث، وبابتسامة المجاهد، وبجريان الماء، وبهداية شاب، وبالقمر إذا اكتمل، وبظل الغصن الأصفر في الصحراء المقفرة، وبدعوة الكبير، وبصلاح القليل ، وبنفوذ بصيص من النور في الظلام الحالك، وبالأمل في الفرج عند اشتداد الكرب:

عسى فرج يكون عسى

نعلل نفسنا بعسى

فلا تقنط وإن لا قيـــــــ

ـــــــت هما يقبض النفسا

فأقرب ما يكون المرء

من فرج إذا يئسا

قل لي بربك..

كيف تحزن وأنت بإيمانك تبدو شامخا كالطود تتقزم أمامه الأحزان، ألست أنت الذي يعرف ربه في الشدة والرخاء..، ألست أنت الذي تخضع جبهتك الشماء لخالق الأرض والسماء تسأله حاجتك وقد وعدك بالإجابة..؟ ألست أنت الذي تنتظر الفرج من مفرج الكربات، ورافع البليات..، أما آن بربك أن تستجيب لنداء ربك حينما قال: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ آل عمران: ١٣٩، ولقوله سبحانه: ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ التوبة: ٤٠، ولقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ فصلت: ٣٠

أيها المحزون..

ما أنت صانع بحزنك؟ ما أنت فاعل بتكدير صفوك؟ هل ستغير بحزنك القضاء؟ أم ستقلب بكدرك القدر؟ كلا ورب الكعبة، فإن القضاء مكتوب، والقدر واقع ، والأقلام جفت، والصحف طويت، وكل أمر مستقر، فلا تحزن وأنت المؤمن بقضاء الله وقدره، املأ سمعك

يقول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَٱلْمُقِيمِى ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ الحج: ٣٥

أيها المحزون..

عشت يوما بحزنك، ويومين، وثلاثة، كم ستبقى قابعا تحت حرارة الأحزان، ولسع الأكدار، إن هذا – يا أخي – هوان لست به خليق، وكسل ليس بك يليق، فانفض عنك غبار التعاسة، عود نفسك على التعبد لله بأنواع العبادات ، وأقدم إلى سعادة العمل المقرون بالعلم، وأشغل نفسك بما ينفعها، وأعمل بدنك فيما يعمر حياتك في الدنيا والآخرة ، واطلب العلم، واكتسب من الحلال ما يغنيك ولو نصبت وتعبت، فما خلق الإنسان إلا في كبد.

أيها المحزون..

لا تقتل نفسك بالحسرات على ما فات من حطام الدنيا ، فما مثل الدنيا عند الله إلا كما قال الله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ﴾ الكهف: ٤٥

ولا تقنط من ذنوبك ولو عظمت في نفسك، وأحسست أنها أهلكتك، و لم القنوط والله

يقول: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ الزمر: ٥٣

ولا تبتئس بكثرة حسادك وشانئيك ، ولا تجعل في قلبك موضع حزن على ذلك ، فما والله حسدوك إلا لأنك ذو نعمة فاشكر الله عليها لتدوم:

وشكوت من ظلم الوشاة ولن تجد

ذا سؤدد إلا أصيب بحسد

لا زلت يا سبط الكرام محسداً

والتافه المسكين غير محسد

وأخيرا..

ادفع عنك الوحشة بذكر الله في كل وقت، وسل نفسك بإخوان الطاعة والصدق، فبهذا تحلوا الحياة، وتسعد الأيام ، لا الحياة الدنيا وأيامها فحسب، بل والآخرة أيضا؛ فإنه الله

يقول: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ الزخرف: ٦٧

واعلم يا صاحب القلب المؤمن : أن الحزن لا يناقض الإيمان، ولكن بشرط ألا يصل إلى حد القنوط والجزع أو عدم الرضا بالقضاء والقدر.

ثم إنه لا ينبغي أن يعلق في ذهنك أن الابتلاء لا يصيب الإنسان إلا في شكل عقوبة لصاحب معصية أو ذنب، كلا، بل إن أحرى الناس بالابتلاء هم أكثر الناس تقوى، وأشدهم إيمانا، لأن في الابتلاء تمحيص للذنوب، ومحو للخطايا، فمن ذا الذي لا يحب أن يقدم على الله وصفحته ناصعة البياض، قد صقلت بكثرة الصبر والبلاء؟!

فعن مصعب بن سعد عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء، قال: ((الانبياء ثم الأمثل فالأمثل، فيبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلبا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئه))، رواه الترمذي وقال : هذا حديث حسن صحيح.

فهنيئا لمن كثر بلاؤه، فقابله بالصبر والاحتساب.

واحرص – حرسك الله برعايته – أن تجعل مصيبتك محورا لتحويل حياتك من الفتور إلى الجد، واتعظ بما يحدث لك، واجعلها لك عبرة، فيا سعادتنا بجملة من الناس لما أحاطهم البلاء – وقد كانوا في انحراف – خرجوا منه بنور الإيمان وسعادة التقوى، فكانت لهم في ذلك خيرة وهداية.

واحذر أن تكون ممن خسر المعركة مع الابتلاء، فعاد منه بالنتكاسة وقلة الإيمان، فقال الله فيه: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١ ﴾ الحج: ١١

نسأل الله تعالى أن يقدر لنا الخير ويسعدنا به ، ويرزقنا حلاوة الصبر في الضراء ، والشكر في السراء، وحمده على كل حال، وأن يفرج هم المهمومين وينفس كرب المكروبين، ويقض الدين عن المدينين، ويرحم موتانا وموتى المسلمين، ويغفر لنا ولوالدينا ولأحبابنا ولجميع المسلمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

- الفهرس

-